

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية) Dialectical images of the Ego and the Other in the orientalist discourse – the system of the stereotypy

بوحريرة فاطمة، بوشفرة نادية

¹ جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)، fatimabouharira.arab@gmail.com

² جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)، bouchefrania07@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 03-12-2024 تاريخ القبول: 25-06-2025 تاريخ النشر: 30-06-2025

ملخص: تعنى هذه الورقة البحثية بدراسة التمثيلات الفكرية والثقافية في الخطاب الاستشراقي باعتباره خطابا ثقافيا متميزا لما يتضمنه من تمثيلات ثقافية عن الذات والآخر، واضعين هذه الدراسة ضمن قراءة القراءة التي تسعى إلى تأويل وتفكيك هذه التمثيلات من خلال الكشف عن الأساليب أو الآليات التي اتكأ عليها المستشرق الغربي في تصويره لذاته الغربية وللآخر الشرقي، المستدعاة من عمق الذاكرة التاريخية للقرن الوسطى والحروب الصليبية، للتعبير عن مشاعر الاستعلاء والتفوق الحضاري تجاه احتقار ودونية الآخر، ومظاهر العداء والكراهية، فضلا عن أشكال الهيمنة والاستعمار، والتي تشكلت كلشبهات وصور نمطية ذات أبعاد نفسية - حضارية كان لها مدى القوة والتأثير على الحضارات والثقافات الأخرى، والتي جسدت في مجملها الأعطاب المتوارثة التي تعيق تواصل الأمم فيما بينها، وتذر الملح في الجراح الرمزية مما يوجب مشاعر الكراهية والبغضاء اتجاه الآخر.

الكلمات المفتاحية: الأنا والآخر؛ التمثيل؛ الاستشراق؛ الصورة النمطية.

Abstract : This research paper deals with studying the intellectual and cultural representations for the orientalist discourse as a distinct cultural discourse, due to the self and the other cultural representations. Besides, we seek through this article to provide interpretation and dissemblance of such representations, along with disclosing the most important methods or mechanisms on which the Western Orientalist relied in his illustration of his Western Ego and the Eastern Other,

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

which it brought into play from the depth of historical memory of the Middle Ages and the Crusades, in such a manner to express feelings of superiority and civilizational preponderance towards the contempt and inferiority of the other, alongside the appearances of hostility and hate, in addition to the forms of predominance, dominance and colonization, which have been formed as clichés and pictures with stereotypes of psychological-civilizational dimensions that had the extent of power and influence on the other civilizations and cultures; and which have, in their entirety, embodied the inherited defects that hinder the communication of nations with each other, and rub salt into the symbolic wounds, and then fuel the feelings of hate and hatred towards the other.

Keywords The ego and other; Orientalism; Stereotype; East; West.

المؤلف المرسل: بوحريرة فاطمة، الإيميل: fatimabouharira.arab@gmail.com

1- مقدمة:

لقد كان موضوع العلاقة بين الحضارتين العربية الإسلامية، والحضارة الغربية من أهم المواضيع وأغناها التي انصب عليها في العصور الحديثة من المنشغلين بقضايا الفكر والثقافة والأدب بمختلف مجالاتها، ولذلك فعندما نمهد لموضوعنا الذي سنتناول فيه دراسة هذه العلاقة من خلال "صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي الحديث" نسقية الصورة النمطية، فإننا نستعرض صورة هذه العلاقة كما تجلت في نظر الرحالة المفكرين والمؤرخين المستشرقين الغربيين وغيرهم، فإننا نهدف من وراء ذلك إلى تقديم صورة واضحة ومحددة عن طبيعة هذه العلاقة بين الحضارتين، وذلك بالوقوف على تحولات هذه الصور التي يتم نشرها على نطاق واسع، وعلى شكل صور نمطية أو كلشيهات. والتي نقصد بها تلك مختلف التمثيلات التي تحملها الأنا عن الآخر، وهي جماع من القوالب والرواسم والمواقف والأفكار والمشاعر التي تراكمت على مر العصور في بنية ثقافية معينة، وأضحت خلفية أو مرجعية يحتكم إليها ليس لرؤية الآخر فقط، وإنما أيضا للتعامل معه واتخاذ موقف منه أيضا، وما يجعل تفاعل الطرفين يتخذ صبغة حركية هو كون الصورة

بوحريرة فاطمة

دوما لها علاقة وطيدة مع وضعية ثقافية محددة تاريخيا ذلك لأنها تجبر الأنا على اتخاذ مواقف معينة تجاه الآخر أو نعتة بمواصفات أو قوالب جاهزة.

وطبقا لذلك نسعى من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن رؤية الذات الغربية الحضارية للشرق بأبعاده المفارقة والمغايرة، وحضور الشرق حضورا قارا في كل أنساق الذات الغربية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، إذ ركزنا في دراستنا هذه على طبيعة حضور الشرق في الخطاب الاستشراقي في جانبه العلمي الذي رصد العلاقة بين الشرق والغرب، تلك العلاقة القديمة والجديدة والمتجددة التي كانت موضع مثار واهتمام المستشرق الرحالة، المؤرخ، المفكر، المستكشف، المغامر الذي رأى أن تصوير تلك العلاقة ستكون بعيدا عن الحقيقة إن هو مكث يرصدها من مكانه (وطنه) لذلك شد رحاله إلى بلدان الشرق، ليرصدها عن كثب، وعلى كثير من الاستعلاء الاستغلال والأوهام والتنميط والتشويه، وكشف ذلك التعارض القائم بين الغرب والشرق، فبدت تلك العلاقة لا تقوم على التفاهم والتعاون والحوار، وإنما على قاعدة غالب أو مغلوب، مهيمٍ أو مهيمٍ، مستعمرٍ ومستعمرٍ، وخارج هذه القاعدة يضمحل الآخر، ويصبح عدما، ويحرم نفسه من مادة غلبته، إنها علاقات تحكمها إدارة القوة والهيمنة والاستيهامات المختلفة.

2.المتن:

1.2 تمثيل الشرق: من المعرفة الشرقية إلى المعرفة الاستعمارية:

لا تخلو ثقافة من الثقافات من تمثيل للذات أو للآخر، فالتمثيل هو الذي يعطي للجماعة أو أمة من الأمم صورة عن نفسها وعن الآخر، وهو الذي يصنع لهذه الجماعة أو الأمة أو الحضارة معادلا لما يسميه بول ريكور بـ "الهوية السردية" (الورفلي، 2009) لجماعة أو أمة من الأمم. أن تمثل، بالمعنى المسرحي، يعني أن تتقمص الدور وتتصدر المشهد وتفرض حضورك على الآخرين، وأن تمثل، بالمعنى النياي، وهو أن تتحمل مسؤولية النطق بالنيابة عن الآخرين الممثلين (بفتح الهاء). وهي وضعية لم تبلغها الثقافة الغربية إلا مع ثورة التنوير أو النهضة الأوروبية والتي عرفت بالحركة الاستشراقية عندما أقبل الغرب

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

بدراسة الشرق لعلومه وآدابه وحضاراته، والذي دفع ثقافة الغرب إلى الواجهة وأتاح لها إمكانية التوسع والامتداد في بقاع العالم الحديث والمعاصر.

ومن هنا، تمثل جميع الثقافات إلى صنع تمثيلات للثقافات الأجنبية توفر سبيلا أفضل لمعرفتها بإتقان أو السيطرة عليها بطريقة ما. وحين تتكاثر هذه التمثيلات وتتسم باتساق واطراد كبيرين، عندئذ تمتلك هذه التمثيلات حضورا ماديا في شكل ممارسات أو مؤسسات كما هو شأن الاستشراق في العصر الحديث، وذلك من حيث هو "نظام من التمثيلات مؤطرة بطعم كامل من القوى التي قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربية، والوعي الغربي، وفي مرحلة تالية، الإمبراطورية الغربية" (إدوارد سعيد، 1981، صفحة 214).

ومن ثم، راهن ادوارد سعيد في تحليلاته للخطاب الاستشراقي أنّ المعرفة الاستشراقية في أغلب الأحوال ليست إلا "اختراعا أوروبيا... وتمثيلا أوروبيا للشرق" (إدوارد سعيد، 1981، صفحة 100). (275) ولقد أكد فتحي المسكيني أنّ إ. سعيد قد راهن "بأي وجه ليست تلك المعرفة إلا نط من الخطاب يتم تحت وقع إدارة سلطة تظل أغلب الأحيان متخفية، ولكنها منتشرة في كل فهم لنا بوصفنا الآخر بامتياز كيف نتحرر من صورة الآخر التي صنعها تلقى غربي معين تاريخيا وحوّلها إلى بنية نموذجية للحكم على هوية شطر غير يسير من الإنسانية بوصفه كيانا دونيا" (فتحي المسكيني، 2005، صفحة 122).

لقد استغل الغرب منهج "التمثيل" في إنتاج صورة عن الشرق بعيدة عن الواقع والصحة للخدمة أغراضه الخاصة، فكانت النتيجة سوء تمثيل. ويقصد ادوارد سعيد بمصطلح التمثيل بأنه "إعادة بناء الشرق بعيدا عن واقعه، وفق مسلمات ذهنية غريبة عن ذلك الواقع، يراد لها أن تحتل موقع الحقيقة الواقعية، مستبعدة الواقع التاريخي والنفسي للأمم الشرقية، ومسدلة إياه بصورة خيالية، ابتكرتها مخيلة الإنسان الغربي، ورسمتها ريشة قلمه، معيدا-بذلك- ترتيب الوقائع والأحداث بالطريقة التي ترضي غروره، وإحساسه بالفوقية، إنها أسطورة الشرق من قبل الذهن الغربي" (إدوارد سعيد، 1998، صفحة 122).

بوحريرة فاطمة

وبدأت محاولات الغرب تمثيل الشرق منذ القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا — كما يؤكد سعيد — فلا يتم التعامل مع "واقع موضوعي وإنما مع واقع افتراضي، ومهما فعل الشرق وغير وقدم، فهو ليس إلا ذلك المهجين المخلّق عبر مخيلة المستشرق، والمكتسب كل خصائص الصورة البشعة المرسومة عنه تاريخيا، ولقد انطوى فهم المشرق الإسلامي بالنسبة إلى الغرب على محاولة تحويل تنوعه إلى جوهر وحداني غير قابل للتطور، وقلب أصالته إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية، ونسخ شعوبه إلى كاريكاتورات تثير الرعب" (إدوار د سعيد، 1996، صفحة 28).

ومع مطلع القرن التاسع عشر، بدأ الاستشراق يحقق الاعتراف به كفرع معرفي مستقل، ويجدر الذكر أنّ البيئة التي ولد فيها الاستشراق كان ثمة حاجة له، وقد ولد هذه الحاجة التوسع في الاحتلال، والمصالح الاستعمارية، فقد أقيمت مستعمرات جديدة، وواجه المستعمرون ثقافات جديدة، وأديان وأفكار جديدة، وكل ذلك كان غريبا بالنسبة لهم، ومن أجل السيطرة على هذه الشعوب غير الغربية كانت الحاجة ماسة إلى زيادة المعرفة بثقافتهم وأديانهم، وقد لّجّ الاستشراق العلماني هذه الاحتياجات، وأصبح آراء المستشرقين منذ ذلك الحين، جزءا أساسيا من الثقافة الغربية.

ومن هنا، ساعد الدارسون للاستشراق الاستعماريين في جعل غزوهم أمرا مشروعاً، بل كان بعض المستشرقين مشتركا اشتراكا مباشرا في مساعدة الإدارات الاستعمارية لبلادهم بتقديم تفسيرات يستطيع بها المستعمرون مجادلة المواطنين في فهمهم للإسلام، فمثلا "عمل لويس ماسينيون **Louis Massignon** في خدمة الوزارة الخارجية الفرنسية، وكذلك الإدارة الاستعمارية في المغرب. وأصبحت الدراسات الاستشراقية بالنسبة لكل من الاستعماريين الفرنسيين، والبريطانيين الذين كانوا يحتلون بلادا إسلامية تفوق مساحتها جغرافيا عدة مرات مساحة بلادهم، وأصبحت هذه الدراسة عوناً لإخضاع الأراضي المستعمرة، ووسيلة لتحقيق أهدافهم الاستعمارية" (آصف حسين، 2013، صفحة 68).

وفي ذات السياق، استخدم منظرو الاستعمار والاستشراق علم الفسيولوجيا، وعلم النفس، والتاريخ، وفلسفة التاريخ، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، والقانون، حتى يثبتوا: أنّ أجناس أهل الشرق من

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

ناحية خلايا العقل وإمكانية الإدراك والفهم والإبداع والإرادة والقوة الروحية والنفسية قد خلقت على مستوى أقل بكثير من الاستعداد العقلي والروحي الموجود عند الغربيين. وهذا ما يظهر في قول السير ألفريد ليال **Sir Alfred Lyall**: "الدقة ييغضها العقل الشرقي، وهي الصفة التي يسهل انخطاطها، فيتحول إلى الكذب، هو في الواقع الخنصية الرئيسة للعقل الشرقي، فالأوروبي يحكم الاستدلال الدقيق، فهو منطقي بالفطرة، وهو بطبيعته شكاك ويطلب البرهان، ودكاؤه المدرب يعمل عمل الآلة المنطقية، أما العقل الشرقي فهو يشبه شوارعه الخلابة المظهر، والاستدلال لديه أبعد ما يكون عن الإتيقان، وعلى الرغم من أن العرب القدماء ارتقوا درجات عالية من العلوم الجدلية، فإن أحفادهم يفتقرون إلى ملكة المنطق افتقارا فريدا، وكثيرا ما يعجزون عن التوصل إلى أوضح النتائج من أية مقدمات بسيطة قد يعترفون بصدقها" (ضياء ساردار، 2012، صفحة 90)

وطبقا لهذا التفسير العلمي الدقيق المدعوم بعدة تخصصات علمية، يمكن التنبؤ بالقطع فإنه إذا لم ينهض الغربيون الموهوبون لنجدة الشرقيين المتخلفين ذهنيا وتخليصهم من قبضة حكامهم الأغبياء، والقيام بالإشراف والوصاية عليهم وإدارة شؤونهم وتعليمهم وتربيتهم سوف تحدث كارثتان عظيمتان. وهذا ما بينه المستشرق شارل ميشيل **Charles Mechel** الذي ألف كتابا أسماه (رؤية بيولوجية لسياستنا الخارجية)، والذي أثبت فيه "أن كل السياسات الخارجية لنفوذ الغرب وسيطرته بالنسبة لكل دولة شرقية كانت تقوم على حقائق علم الأحياء، والتخلف الذاتي لأهل البلدان الشرقية وتفوق استعداد وقدرات الغربيين وحاجة الشرقيين إلى حماية الغرب وإدارته" (محمد حسن زماي، 2010، صفحة 216).

وفي الاستشراق الحديث حسب ممثليه - السير ألفريد ليال - يظهر "الشرقيون والعرب سدّجا: غافلين، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة، مجبولين على حب الإطراء الباذخ والدسيسة، والدهاء، والقسوة من الحيوانات، فعقولهم الفوضوية تعجز عن فهم ما يدركه الأوروبي الذاتي على الفور...

بوحريرة فاطمة

فالشرقيون عريقون في الكذب، وهم كسالى ويستربون بغيرهم وفي كل شيء يمثلون عكس صفات الوضوح والمباشرة والنبيل التي يتحلى بها الجنس الانجلو سكسوني" (إدوارد سعيد، 2014، صفحة 179)

هذه الصور النمطية تنم عن تمايزات وهمية تضع أمامنا تجربة الرحالة والأدباء والمستشرقين الذين جاءوا إلى الشرق، حيث كان بعضهم يهدف إلى تغيير الشرق على نحو ما يفعل لورانس في جزيرة العرب: "لقد توخيت أن أصنع أمة جديدة، وأن أحبي نفوذاً ضائعاً، وأن أمنح عشرين مليوناً من الساميين مرتكزات لينبأ عليها قصر الأحلام الذي رسمه خيالهم الوطني". ولكن لورانس يكشف في مكان آخر من كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" عن الهدف الحقيقي لهذا التغلغل الكامل في الشرق: "وبما أنني لست مغفلاً فقد استطعت أن أرى لو أننا كسبنا الحرب لأصبحت الوعود التي قطعناها للعرب حبر على ورق" مضيفاً: "كنت أتطلع إلى أن يصبح العرب أول الخاضعين السمر لسلطاننا" (علي هشام، 2004، صفحة 179)

تفضح تجربة لورانس حضارة الغرب ومركزيته، وحقيقة وجهه الأوروبي الامبريالي الاستعماري، والحال لا يختلف للعديد من الكتاب الأوروبيين، ولسان حالهم يقول: "فنحن نسيطر لأننا نملك القوة الصناعية، والتقنية، والعسكرية، والأخلاقية وهم لا يملكونها، ولذلك فهم ليسوا مسيطرون، إنهم دونيون ونحن فوقيون" (إدوارد سعيد، 1998، صفحة 171). لذلك جاءت هذه التمثيلات لتؤكد وتثبت القوة الأوروبية.

1.2 التمثيل المعرفي: الأنثروبولوجيا كوشاح للموضوعية:

لم تكن الغاية لدراسة الشعوب غير الغربية إنتاج المعرفة لذات المعرفة، ولكن لتزويد الاستعمارين بوسائل لاستغلال الأمم غير الغربية، وكان التمويل جاهزاً لإعداد البحوث، فأجريت العديد من الدراسات عن آسيا، وأفريقيا، والشرق الأوسط تحت ستار الموضوعية الأكاديمية، والجدير بالملاحظة أنه لا يعرف عن أحد من علماء الأنثروبولوجي الأوروبيين أنه مال إلى الثقافة التابعة التي درسها، فالموضوعية "أسطورة استخدمت لتكريس نتائج بحوث الأنثروبولوجي" (آصف حسين، 2013، صفحة 116).

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

إنّ هذه الموضوعية المقترحة أقامت فرضياتها التحليلية على جهاز محكم من المفاهيم والأسس والتصورات المشتقة من دراسات جرى صوغها في الميدان الغربي على مجتمعات لها تقاليد خاصة بها، وأوضاع اجتماعية لها صلة بتجربتها التاريخية، وترحيل تلك المعرفة خارج سياقاتها، والأخذ بها في تحليل بنية المجتمعات المستعمرة أدى إلى إعادة إنتاج موضوعات التحليل بما يوافق التصور الغربي لها، والتعسف في تطبيقها داخل ميدان ثقافي مختلف كلياً عن الميدان الذي أنتج فيه تلك المعرفة. فالرحالة الغربيين في دراستهم للشرق كانوا اثنوجرافيين إثنولوجيين؛ بمعنى أنهم كانوا يعنون بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى المجتمع الشرقي (بالمعنى الغربي لكلمة الشرق)، خلال فترة زمنية محددة، ثم يقومون بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوجرافية، بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، وتعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها، وبهذا تشكل المادة الإثنوجرافية قاعدة أساسية للبحث الإثنولوجي؛ فالإثنوجرافيا والإثنولوجيا مرتبطتان والواحدة تكمل الأخرى، وهما تشكّلان مجالين دراسيين هامين في إطار مجالات الدراسات الأنثروبولوجية التي يقصد بها ذلك النسق المعرفي المنهجي "لدراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً" (عيسى الشماس، 2004، صفحة 10).

فإذا كان أدب الرحلات هو رواية التفاعل بين الأنا والآخر، ومادته ذاتية وفيه طرق للموضوعات الهامة والشيقة وحرية للتعبير كاملة، فإن العمل الإثنوبولوجي في زعم أصحابه أنه يتصف بالموضوعية، هذا ادّعاء غير صحيح؛ لأنه فيه تحيزاً غير واضح لخدمة التمرکز الغربي، الذي لا يرد إلى شخصية وصفات الباحث الرحالة فقط، وإنما إلى توجهه الفكري. ولأن الأنثروبولوجي الغربي وهو يدرس الآخر غير الغربي وثقافته، فهو يعيد بشكل أو بآخر إعادة إنتاج ذاته المتمركزة والمتعالية، وتجديد الشعور بالتفوق الحضاري الوجودي والمعرفي، عبر إنتاج هامشية الآخر ودونيته بإخضاعه لمنهجيات العلوم الإنسانية لأنه بعد التواطؤ الذي حصل بين الدراسات الأنثروبولوجية والاستعمار لم يعد تبرئتها واعتبارها موضوعية وإنسانية، فهناك

بوحريرة فاطمة

روابط أيديولوجية وسياسية وثيقة مع الممارسات الاستعمارية وهذا ما تظهره الدراسات الإثنية الأفريقية، سواء منها الفرنسية أو الإنجليزية، فقد كانت شكلا من أشكال الخطاب الاستعماري. ما يؤكد لنا، أنّ الأنثروبولوجيا لم تأخذ أبعادها الخاصة إلا داخل السيادة التاريخية المكبوتة دوما مع أنها حاضرة باستمرار في الفكر الغربي معرّفا، كما أفصح عنها الاستعمار سياسيا واقتصاديا. وهذا ما عبّر عنه جيرار ليكلارك **Gérard Leclec** من خلال قوله: "الغربي ليس ذاتا، ولا إنسانا ولا متحضرا ومتقدما ومتنورا إلّا لأنّ هناك ما يشكل موضوعا بدائيا ومتخلفا وظلاميا تستوجب تنويره وهو ما سوّغ استعمار الشعوب غير الغربية والهيمنة عليها عبر سياسات امبريالية، وهو ما وضع الخطابات والمعارف المتوصل إليها في الدراسات الأنثروبولوجية موضع شك، بل موضع إدانة وتم التساؤل عن تاريخانيتهما التي - طوعا أو مرغمة - تجد أصولها ومدى اتساعها من ظلال السيطرة الاستعمارية الأوروبية" (جيرار ليكلارك، 2004، صفحة 10)

وهكذا انتهى الأمر بالمعرفة الأنثروبولوجية إلى الوصول إلى نتائج لم تصدق على موضوعها، إنما استجابت للشروط المنهجية الغربية التي حملتها معها، وليس ثمة قيمة لمعرفة تعيد إنتاج موضوعها طبقا لفرضيات لا صلة لها بتلك الموضوعات، إلى ذلك لم تخل المعرفة الأنثروبولوجية من غايات مستترة جرفت روح المقاومة عند الشعوب المستعمرة، وأحلت فيها أخلاقيات الانصياع بدل أخلاقيات المقاومة، فجرى تمثيل أحوالها بصور بدائية غامضة، لتقع فصلها عن هوياتها الأصلية، فتتوهم أن القطيعة معها ستقودها إلى الحداثة.

2.2 التمثيل الحضاري: النظرة الفوقية /النظرة الدونية:

يتضمن الاستشراق مادة علمية تتخللها أفكار التفوق الأوروبي وشتى ألوان العنصرية والامبريالية، ويرى إدوارد سعيد أنّ الاستشراق في نهاية الأمر هو رؤية سياسية للواقع، وهذه الرؤية مبنية على تعزيز الفرق المألوف بين (أوروبا أو الغرب أو نحن)الأذكياء/الموضوعيين/العقلانيين، وبين الغريب(الشرق أو هم) الأغبياء/غير العقلانيين/الفاستدين/غير الموضوعيين، كما يبين لنا كيف سطا الاستعمار الغربي على الشرق بثقافة الاستشراق، فإنّه أكمل دائرة الممارسة الاستعمارية ليبين كيف أنّ الغرب استثمر ثقافته . أيضا في

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

بعث صورة مشرقة عن نفسه، هي في الواقع الصورة نفسها التي تسلح بها في تصويره للشرق: صورة الأنا الفوقية مقابل الآخر الدونية، وهي العلاقة التي تعرف بممارسة الاستعمار.

إن الشخص الأوروبي ينظر إلى غير الأوروبي نظرة قائمة على الفوقية، بغض النظر عن الخلفية الثقافية لهذا الشخص، فيستوي في ذلك الشرقي وغير الشرقي، سواء كان هذا الشرقي مسلما، أم كان من ذوي الثقافات الأخرى، كالهندوس أو البوذيين والزرادشت والمجوس والوثنيين الآخرين. لذا لم يتحمل الغرب أن ينظر إلى الإسلام على أنه دين شامل، بل نظر إليه على أنه دين آت من الشرق، ومن العرب تحديدا، لذا يستخدم المصطلحان الإسلام والعرب تبادليا، بل إن مصطلح العرب عند الغرب طاغ على مصطلح الإسلام. ويندر ذكر مصطلح الإسلام في مقابل مصطلح العرب، إلا لدى المستشرقين الذين تمكنوا من التفريق بين المصطلحين. ومن هنا، سعى بعض المفكرين ومنهم المستشرقون إلى صناعة الكراهية، داخلي الثقافة الواحدة، ولتكن الثقافة الإسلامية هنا مثلا، فحينما يعتمد بعض المستشرقين إلى هذا المجال فإن الأمر سيكون أشد وطأة، لاسيما إذا هلّوا الاختلافات بين المسلمين في الفروع مجالا رحبا للفرقة بينهم. يقول **تيري هنتش Thierry Hentsch**: "ليست النزعة العرقية نقيصة بالإمكان التخلص منها، ولاهي بخطيئة يتوجب التطهر منها بطلب الغفران. إنها الشرط عينه الذي يحكم نظرنا إلى الآخر" (علي بن إبراهيم النملة، 2009، صفحة 23)

هذه الظاهرة -(النزعة) - التي يؤرخ لها الدكتور إبراهيم مذكور، فيذكر: أنها ترجع إلى اليونان، إذ اعتمدتها فلسفاتهم - وعلى رأسهم أرسطو - بالمقولة المشهورة "كل ما وراء أثينا بربر" وقد جاء بوصية أرسطو لتلميذه الاسكندر "إذا وجدت يونانيين خلفي فلا تستعمرهم إذ هم أحرار، أما العبيد والعتقاء والمهجنين، فإنك يجب أن تعاملهم بقوة، وأن تستعمر بلادهم". وخلف من بعد اليونان الرومان الذين كانت تأخذهم العزة بعنصريتهم، فأقاموا عليها تفرقة في (تشريعهم وقوانينهم بين الرومان وغير الرومان)...وبقيت الرواسب العنصرية في أعماق النفس الغربية ثقافيا وسياسيا، فقد جاء في تعريف كلمة

بوحريرة فاطمة

أسود بقاموس أوكسفورد للغة الانجليزية"ملطخ للغاية بالقذارة، ملوث، قذر...أهدافه سوداء، مميتة، شريرة، ينتمي إلى الموت، وينطوي عليه، مميت، مهلك، مسبب للكوارث والنحس...فاسد، فاسق، أثيم، مرعب، شرير...يدل على الخزي والاستهجان والجرم" (مصطفى حلمي، 2001، صفحة 74)

وقد كان لهذه العنصرية دعاء يزينونها وينشرونها ويقنعون بها شعوبهم، بأن الجنس الأبيض جنس متفوق بعنصره على الأجناس الأخرى، وأنه من حقه لذلك، بل من واجبه أن يحكم تلك الشعوب ويقودها إلى طريق الحضارة، ومن هؤلاء المفكر الفرنسي **جول هارمان Jules Hermann** الذي يقول: "من الضروري إذن أن يقبل من حيث المبدأ، وبداية انطلاق حقيقة أنّ هناك هرما للأجناس والمدنيات، وإننا ننتمي إلى الأجناس الأعلى والمدنية العليا مع الاعتراف بأنه إذا كان السمو يعطي حقوقا فإنه يفرض في المقابل واجبات صارمة. إنّ الذي يبيح لنا غزو مواطني البلاد الأخرى هو اعتقادنا في تفوقنا، لا تفوقنا الميكانيكي والاقتصادي والعسكري فحسب، بل تفوقنا الخلقي. إنّ عزتنا تعتمد على هذه الخاصة، وهي التي يعتمد عليها في توجيه بقية الإنسانية، إن الوسيلة المادية ليست سوى لتحقيق تلك الغاية" (شيخ إدريس، 2013، صفحة 65 . 66)

يبدو أن هذا التمييز العنصري جعل العقل الغربي المعاصر أيضا لا يتصور هناك طريقا إلا طريقه، ولا أساليب إلا أساليبه، ولم تستطع الحضارة الغربية الانفتاح على غيرها من الحضارات، طوال تاريخها، وأظهرت دائما استعدادها للاستغناء من عند الآخر، وكان الغير من عند الرومان هو البرابرة، وعند الفرنجة هم الشياطين، ولم يستطع العقل الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين أن يسبغ على سكان المستعمرات سوى وصف الأهالي. إنه ذلك الشعور الوسواسي، الواعي أو غير الواعي بالتفوق والميل إلى الهيمنة، وكما يقول أحمد الدعيمي: "لقد عبّر هذا الموقف الغربي الفوقي عن نظرة دونية للماضي العربي الإسلامي من خلال الشعور بحرية استثمار تاريخنا، ليس لخدمة العرب المسلمين، بل لمباشرة مشاكل غربية وللاستجابة لمعضلات محلية لا تمت بأية صلة للعرب وللإسلام. وبهذا صادر الفكر الاستشراقي تاريخنا، تاريخ (الآخر)، لصالح ثقافته وحضارته، مؤسسا هذا الموقف المتعالي على شعور قوي بأن التاريخ إنما يتطور على

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

نحو خيطي وخطي، حيث تدفع حضارات وخبرات جميع الأمم الذروة النهائية لتاريخ العالم. تلك الذروة المتمثلة في الحضارة الغربية" (علي بن إبراهيم النملة، 2009، صفحة 21 . 22).

ويكشف الدكتور علي شريعتي هذه النظرة المغرورة والمتكبرة للغرب وعمليات إهانتهم للشرقيين، قوله: "تشيع هذه النظرة في فلسفة الغرب من نيتشه إلى "هيجل" و"كنت دوجويتو" ومن "زيمغوند فرويد" إلى "زيجفريد"، بل إن "ارنست رينان" المحب للبشرية كان يقول أيضا: "إن الغرب جنس يدير العمال. وكان السيد "زيجفريد" يقول: إن العقل الغربي هو عقل الصناعة والإدارة والحضارة، أما العقل الشرقي فهو عقل المشاعر والعواطف. وكان "موريس تورز" زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي يقول: "إن شعوب الجزائر وشمال إفريقيا، ليست شعوبا، إنهم في حالة التحول إلى شعوب" (محمد حسن زماي، 2010، صفحة 231)

إن هذه الممارسات الإقصائية التي تتغيا تهميش الآخر ونفيه وطرده من جنة العقل وجنة الإنسانية لهي من صميم الذات الغربية وليست من خارجها ولا غريبة عنها، فالتاريخ يثبت ذلك، ويبدو أن انتحال أفكار الآخرين وأقلمتها مع ما يتواءم والذات الغربية لخصيصة غريبة في العمق، فما فعله الإغريقون بإنتاجات وتراثات الحضارات الشرقية المصرية، الصينية، والهندية، فعله أروبيو العصر الحديث بالتراث العربي الإسلامي، بأن أنكروا إسهامات والفلاسفة والعلماء المسلمين في النهضة الأوروبية وتنوير الإنسان الغربي عندما شكلوا وسيطا بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الحديثة. وبالتالي نفوا على العقل العربي الإسلامي أي نزوع إنساني يحتفي بالإنسان وبتاريخه الحافل بالإنجازات وكونه أعلى قيمة في الوجود. فكأن الإنسانية بما هي "ذلك الموقف الذي يحترم الإنسان بحد ذاته ولذاته ويعتبر مركز الكون ومحور القيم" (محمد أركون، 1997، صفحة 10) التي لا يمكن تجديدها إلا في الوسط الأوروبي الغربي، وهذا ما يعتقده الكثير من الفلاسفة والمثقفين الغربيين وعلى رأسهم المستشرقون الذين ساهموا بشكل أو بآخر، بقصد أو بغير قصد في الترويج لدونية الآخر العربي الإسلامي، ما يحيل على أن مساحة اللامفكر فيه والمستحيل التفكير فيه

بوحريرة فاطمة

كانت واسعة جدا إذا ما قرنت بمساحة المفكر فيه في السياق العربي الإسلامي، التي كانت ضيقة في اعتقادهم. هكذا بالضبط أخرج التفكير العربي الإسلامي عبر الخطاب الاستشراقي أو عبر الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي.

هذه الاستجابة الثقافية الغربية السلبية المغلوطة للتراث العربي الإسلامي، كان المفكر الجزائري محمد أركون، قد برع في تصحيحها من خلال تأصيله للنزعتين العقلانية والإنسية في السياق العربي الإسلامي الكلاسيكي. فما كان من السهل على المستشرقين المتحيزين ضد التراث العربي الإسلامي الذين "لم يكونوا يعتقدون بوجود نزعة إنسانية إلا في عصر النهضة وفي الحضارة الأوروبية بالذات. وبالتالي ما كان من السهل عليهم أن يقبلوا بأطروحة أركون القائلة بوجود نزعة إنسانية في الفكر العربي الإسلامي في القرن الرابع الهجري، ولم يستطع فرض أطروحته إلا بعد جهد جهيد" (محمد أركون، 1997، صفحة 14)؛ فأطروحة أركون مفادها أن العصر الكلاسيكي كان قد شهد النزعة الإنسانية نظريا وعمليا. ويعتقد أركون جزءا من الاستشراق كان له اليد الطولى في تغييب وإغفال أو تناسي هذه الفترة التاريخية الثمينة في السياق العربي الإسلامي، بل وحصول تصفية لهذا الموقف الإنساني وللأعمال الفلسفية التي عبرت بعمق عن نزعة عقلانية إنسانية ازدهرت في القرنين الثالث والرابع للهجرة بشكل خاص.

ولا ننسى النصوص والأخبار المدونة عن الشرق التي لعبت دورا أساسيا في تشكيل الرؤية الوهمية المغذية للشعور العدواني للإنسان الغربي، الذي لم يكن قد تخلص من مخيال القرون الوسطى، فالأداة المنهجية المستعملة من طرف الباحثين آنذاك، هي التأويل القائم على ميتافيزيقا عقلية أرسطية، تحكمها ثنائيات مبدأ الثالث المرفوع بحيث يصبح كل ما ليس له أصل في الثقافة اليونانية غير عقلائي، وقد عبر عن ذلك فيلسوف المرحلة مونتاي بقوله: "فهناك عمل أكبر لتأويل التأويلات من تأويل الأشياء، ربما أن هناك كتب حول الكتب حول أي موضوع آخر، إننا لا نفعل أكثر من نفس بعضنا" (الهادي، 2002، صفحة 43)

صور جدلية أنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

وبذلك أصبحت مرجعية الثقافات الأخرى هي الثقافة الأوروبية بواسطة التأويل، وازدادت هذه الممارسة الفلسفية تحذراً في الخطاب التاريخي الأوروبي، الذي جعل من الشرق، مهد الثقافات الإنسانية، مجالاً للخرافة والأسطورة، وهذا راجع كله إلى استعمال المنهج الفيلولوجي الذي مازال سائداً في أوساط المستشرقين الأوروبيين اليوم، والذي رسخ التأويل كأداة للفهم من خلال علاقة الدال والمدلول، مما أدى إلى ترك المجال واسعاً لإرادة القوة.

هذه الإرادة تنم عن نزعة التمرکز حول الذات والنزوع نحو جعل الثقافة الغربية ثقافة الإنسان الوحيدة. وهذا ما يوضحه أحمد رمزي بقوله: "لقد كان للمستشرقين عموماً عقدة التعالي المنبثقة من انتمائهم للحضارة الأوروبية المتقدمة في رأيهم بقيمتها وقوتها المادية، وكان الجو العام هو أنّ لأوروبا رسالة حضارية يجب أن تبثها بين الشعوب (المتخلفة)، وكانت الغلبة للمستشرقين نظراً لتمكنهم في العلوم الحديثة، كعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، واللغات الشرقية، والتاريخ المقارن، إلى غير ذلك من العلوم العقلية" (علي بن إبراهيم النملة، 2009، صفحة 22)

لكن هذا التمكن أو الاحتكار الذي يظهر في مختلف العلوم التي أنتجها المشروع الثقافي الغربي للهيمنة على الشعوب الشرقية، يحكمها نسق وثابت واحد، وهو مركزية العقل الغربي وتعالیه، الذي يعبر عن صميم رؤيته للكون والتاريخ والإنسان، غير المستقل عن بنيته العقلية، وهذه رؤية أغلب المستشرقين الذين يستندون إلى الرؤية التاريخية للتاريخ والمنهجية الوضعية الفيلولوجية التي تم تجاوزها حالياً بظهور المنهجية التاريخية واللسانية المعاصرة التي أحدثت قطيعة معرفية مع الاستومولوجيا الكلاسيكية التي أفرزت فقه اللغة (الفيلولوجيا) ومفهوم الاتصال في التاريخ والإثنولوجيا (علم الأجناس) هذه العلوم القائمة على البحث عن الهوية والأصل من وراء الاختلاف، مما يؤدي دائماً إلى نفي وجود حضارة عربية إسلامية، وإلى التأكيد على الرؤية القائلة بالبنية الثابتة للثقافة العربية الإسلامية، حيث المستشرق هنريش بيكر **Henrich Becker** يقول "أنّ ما نسميه حضارة عربية إسلامية مجرد ترجمات للأفكار والعلوم

بوحريرة فاطمة

التي وحدّها العرب و البلدان التي فتوحها وهذا ما يؤكد أن الإسلام لم يعرف أدنى تطور" (الهادي، 2002، صفحة 47) ووفقا لهذه الرؤية تكون الحضارة العربية الإسلامية ما هي إلا الحضارة اليونانية في شكلها الفلسفي والعلمي، ولم يكن دورها إلا دور المحافظ على الإرث اليوناني. ويؤكد على ذلك المستشرق الفرنسي ارنست رينان ومواطنه ليون غوتيه الذي يرى أن هناك تناقضا بين العقلية السامية المتميزة بالرؤية التجزئية القائمة على الفصل والعقلية الآرية التركيبية القائمة على الوصل، وبهذا يكون الجنس العربي عاجزا عن الإبداع الفلسفي والعلمي، وما الفلسفة العربية الإسلامية إلا تعريب للفلسفة اليونانية أو هي الفلسفة اليونانية ممزوجة بالإسلام، وهذا ما عبّر عنه ارنست رينان **Ernest Renan** في محاضرة له عن (الإسلام والعلم)، مستعيرا فكرته من فولتير، "إنّ العقل الشرقي غير قادر على التفكير المنطقي والفلسفة، وكان ذلك سببا في الوقوف من دون تطور العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، كان العلم القليل والفلسفة اللذان جاء بهما المسلمون نتاجا لثورة على الإسلام" (ضياء ساردار، 2012، صفحة 100) أصبح الرأي الذي يقول أنّ المسلمين لم ينتجوا علما أصيلا، وإنهم كانوا مجرد ناقلين للمعرفة الإغريقية إلى أوروبا.

إنّ جلّ هذه الخطابات تحمل في ثناياها فكرتين الأولى: تفوق الذات الغربية تاريخيا، والثانية: قابلية الشرقيين للخضوع والسيطرة لعدم قدرتهم على حكم أنفسهم، إن هذا التمحور الذاتي الأوروبي رسخ في بنية المشروع الثقافي الغربي الشعور بالتفوق العرقي والفكري والأخلاقي، حتى اعتقد الإنسان الأوروبي أنّ له الحق والشرعية في حكم الشعوب غير الأوروبية، المنحطة والتشريع لها وتأديبها، وهذا نفسه ما عبّر عنه هيجل في التاريخ الشرقي، كما أن هذه الرؤية تستمر في رؤية ماركس للشرق الذي يقول عن الشرقيين "إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ولا بد أن يمثلهم أحد" (إدوارد سعيد، 2014، صفحة 70) وبهذا يكون الاستعمار رسالة تمدنية للشعوب غير المتمدنة، التي يحولها النظام الرأسمالي الاستعماري من تشكيلات لا رأسمالية إلى تشكيلة رأسمالية، وهذا انطلاقا من اعتقاده بعالمية النظام الرأسمالي. مما يستدعي القول: "إنّ الاستشراق كعنصر من عناصر البنية الخفية واللاواعية في العقل الغربي يقوم على فلسفة الهوية في النظرة على الآخر، هذه الفلسفة التي أطرت الفلسفة الغربية ومشروعها الحدائي في عصر الأنوار، والذي استمر

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

يردد يقينيته ومطلقاته إلى غاية الستينيات من القرن العشرين، والتي عرف فيها هذا المشروع هزات عنيفة باختيار المروع الاستعماري الذي مثل الصيغة الوجودية للعقل الغربي ومشروعه الثقافي" (المادي، 2002، صفحة 56)

هكذا حفلت الكتابات (العلمية) الاستشراقية بالصور النمطية، عن الإنسان الشرقي، كما يتوقعه الغرب، أو كما يريد أن يكون. أراد الاستشراق بكل تياراته ومثليه، أن يكون الدارس المترفع المتعالي المنكب على دارة الشرقي انكباه على أي موضوع بيولوجي أو فيزيائي. لذلك لم يوجد (استغراب) يدرس من خلاله الشرقي دارسه الغربي. ولأن الطرفين غير متكافئين لم يكن ذلك بالوارد على خاطر مجتمع غربي يعتبر كل الوجود موضوعاً لمعرفته العلمية، وبالتالي لسيطرته. وهذا ما تبين لنا من خلال ما سبق أن الغربيين كوّنوا جملة من الصور التمثيلية والاستعارات التي ألصقوها في الشرق، لا تخلو من التجريح والدونية، والمبالغة في احتقار الشرقي.

3. الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكن إجمال أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط الآتية:

— لقد استغل المستشرقون في تصويرهم للشرق ناحيتين فئيتين ارتكزت عليهما صورة الشرق: أولاهما: الناحية الأكاديمية التي شكلت غطاءاً شرعياً تزعم من تحته البراءة، فالباحث الأكاديمي تتمتع أقواله بالمصداقية. وبهذا أصبح الشرق أداة في متناول المؤرخين، ومن ثم السياسيين.

وثانيهما: الخيال، فقد صاغ المستشرقون صورة الشرق بخيال جعل هذه الصورة تبدو وكأنها تمثيل أو انعكاس خفي للواقع. وكان لهذه الممارسة أكبر الأثر في تسويق الاستشراق من خلال مصداقية الخيال المعهودة، فالذي يقرأ ما كتبه المستشرقون عنا يقع تحت تأثير الخيال ومن ثم يصدق الصورة.

— كان الاستشراق في مجمله عوناً على بسط الهيمنة الغربية بمختلف أشكالها على العالم الآخر غير الغربي، بما فيه العالم الإسلامي فجاء معظم إنتاجه المعرفي متمسماً بالمتعالي على المدروسين وإشعار هؤلاء المدروسين بلهجة الرقي والتفوق الذهني عليهم.

بوحريرة فاطمة

— تبين أن الاستعمار الغربي على الشرق لم يكن ماديا أو بالسلاح فقط، وإنما تعزز بالمعرفة التي هيأت الشرق للاستعمار، وهذه الآلية المعرفية هي التي ساعدت الاستعمار على اكتشاف الشرق ومن ثم احتلاله واستغلاله.

— نستنتج كذلك أنّ الكثير من الصور الذهنية والأحكام العقلية التي تشكلتها الثقافة الغربية نفسها وعن الثقافات الأخرى ليست معاصرة أو جديدة، بل قديمة تشكلت في القرون الوسطى، حيث وظفت المفاهيم الفلسفية الوضعية في الخطابات السياسية والتاريخية بعقلية دغمائية، بنفس دغمائية القرون الوسطى التي تم نقدها من طرف الفكر الوضعي، فقد تتغير المفاهيم، لكن التصورات المخيالية التي تؤطرها والآليات الذهنية التي تحركها وتوظفها في الرؤية والتعامل مع الآخر لا تتغير، إلا وفق تطور العلاقة التي تربطنا معه.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1. إدوارد سعيد، (1996)، *تعقيبات على الاستشراق*، تر: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت.
2. إدوارد سعيد، (2014) *الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق*، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة.
3. إدوارد سعيد، (1981)، *الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء*، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت.
4. إدوارد سعيد، (1998)، *الثقافة والإمبريالية*، كما أبو ديب، دار الآداب، ط1، بيروت.
5. آصف حسين، (2013)، *صراع الغرب مع الاسلام، استعراض للعداء التقليدي للاسلام في الغرب*، تر: مازن المطبقاني، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، السعودية.
6. الهادي منير، (2002)، *الاستشراق والعمولة الثقافية*، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط1، وهران، الجزائر.
7. الورفلي حاتم، (2009)، *الحموية والسرد*، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، تونس.
8. جبار ليكلارك، (2004)، *العمولة الثقافية الحضارات على المحك*، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة، ط1، بيروت.

صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الاستشراقي (نسقية الصورة النمطية)

9. شيخ إدريس، (2013)، صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط1، الرياض.
10. ضياء ساردار. (2012). الاستشراق (صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية. (1. éd.) هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة.
11. علي بن إبراهيم النملة، (2009)، نقد العقل المعاصر، صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها، دار الفكر، ط2، دمشق.
12. علي هشام، (2004)، شرق رامبو، عدن والحلم الشعري، مركز عبادي للدراسات، ط1، صنعاء، اليمن.
13. عيسى الشماس، (2004)، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجي). دراسة. ، اتحاد الكتب العرب، ط1، دمشق.
14. فتحي المسكيني، (2005)، الفيلسوف والإمبراطورية في تنوير الإنسان الأخير ، المركز الثقافي، ط1، بيروت.
15. محمد أركون، (1997)، نزعة الأنسة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيد، تر: هاشم صالح، دار الساقى ، ط1، بيروت.
16. محمد حسن زماي، (2010)، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين، نبذة تاريخية، الأهداف، المدارس، مدى أنشطتهم، تر: محمد نور الدين المنعم، المركز القومي للترجمة ، ط1، القاهرة.
17. مصطفى حلمي، (2001)، حضارة العصر، الوجه الآخر مع مقال كيف نصون الهوية الإسلامية في عصر العولمة، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، الاسكندرية.